٢ ـ ثقافة أبي العلاء

للأستاذ دريني خشبة

لم يكن أحد في عصر المتنبي أكثر إلماماً باللغة العربية من المتنبي ، ولم يكن أحد في أيام المعري أكثر إلماماً باللغة العربية وغريب اللغة العربية من المعري ، بل لعل الله لم ييسر لأحد ممن أحاط باللغة العربية ووقف على غرائبها ما يسر من ذلك كله لأبي العلاء ...

وقبل أن نأخذ في هذا الحديث عن ثقافة أبي العلاء أحب أن أرجو القارئ في الرجوع إلى معجم ياقوت ليقرأ معي أسماء ذلك الثبت الطويل من الكتب التي ألفها ، أو صنفها ، أبو العلاء ، وما أورده ياقوت من الأسباب التي دفعت أبا العلاء إلى تأليف تلك الكتب ... وأحب كذلك أن أرجو القارئ في أن يصبر على قراءة أسماء تلك الكتب الكثيرة الغريبة التي نضيق نحن اليوم بها وبموضوعاتها التي لا يدل ظاهرها على طرافة أو عبقرية ، إن لم يخيل لنا أنها تدل على حذلقة وتقعر ... أو تفاصح وتشدق ... على حد ما عبر ياقوت[1] ... وأحب أن ألفت نظر القارئ إلى ملاحظة قد تكون سخيفة إلى آخر حدود السخف أولاً ، لكنها لن تكون سخيفة آخر الأمر ، لأنني سأتخذ منها دليلاً على أن أبا العلاء لم يكن يؤلف هذه الكتب الكثيرة المعقدة ، المضطربة ، فيما يبدو لنا ، التي لا قيمة لها في رأي الكسالى الذين لا صبر لهم على حل الرموز وفك الطلسمات ... أقول إنني سأتخذ من هذه الملاحظة دليلاً على أن أبا العلاء لم يكن يؤلف هذه الكتب المعقدة ... لله ... أو بغير أجر إذا ضقت بهذا التعبير العامي الذي لا يعجبك ...

إذن ليلحق القارئ باله إلى عدد الكراسات التي يتألف منها كل من كتب أبي العلاء ... وسنضع تحت أيدي القراء ميزاناً سهلاً لحساب هذه الكراسات. الكبيرة العدد التي كانت تتألف منها كتبه

١ — فياقوت يذكر أن كتاب الفصول والغايات كان يتألف من سبعة أجزاء أمليت في مائة كراسة (ج ٣ : ١٤٧) ويذكر الدكتور طه حسين ـ رجل أبي العلاء ـ أن الكتاب

(١) طبعة دار المأمون ج ٣ ص ١٧٦

متى يقضي الوقت والله قادر فنسكن في هذا التراب ونهدأ

ويزيد من وطأة الشعور بهذه الحالة التعسة أن يرى صاحبها خلاص قرنائه ولداته ومصارع الأقوام حوله ، وبقاءه هو فريداً مردوداً إلى أرذل العمر

يمر الحول بعد الحول عني وتلك مصارع الأقوام حولي

ثم يفر إلى تخيل يومه هو عندما يحين حينه فيرتاح

كأني بالألى حفروا لجاري وقد أخذوا المحافر وانتحوا لي

ثم يصيبه الإعياء والكلال من كثرة إرساله خواطر الثورة والحيرة والنفرة من الحياة والتشكيك فيها والسخط عليها ومضغ ألفاظ الألم والشؤم والكذب على الحياة ، والإيغال في تخيل تلك الصور الكئيبة التي يرددها دائماً على نفسه ويملأ بها حياته ، فيعود إلى الصمت والأخذ عن الزمن الناطق الواعظ الخبير المبصر على كلماته الأزلية :

قام للأيام في أذني واعظ من شأنه الخرس

أوجز الدهر بالمقال إلى أن جعل الصمت غاية الإيجاز

منطقاً ليس بالنثير ولا الشعر ولا في طرائق الرجاز

ولقد تبلغ به في بعض الأحيان زلزلة الشك في صدق ما يقول من تلك الخطرات التي يظهر أن كثيراً منها كان وحي اللفظ أو القافية أو الخضوع لحب الأغراب ، أن يشعر بصوت الزمن الصامت البليغ يرد عليه دعاويه ويفندها ويبكته

كادت سنيٌّ إذا نطقت تقيم لي

شخصاً يعارض بالعظات مبكتا

ويقول : من بعث اللسان بغير ما

أرضى فحقٌّ أن يهان ويسكتا

دنياك لو حادثتك ناطقةً خاطبت منها بليغة لسنه

تلك هي الصورة الأصيلة لأبي العلاء ، لا يخطر ذكره بالبال ، إلا وتتراءى لعارفيه أوضح ما تكون خطوطاً وقسمات . وهي صورة تتصل بمزاجه وشخصيته أكثر مما تتصل بفكره وفلسفته ، وهي هالة اسمه وطابع شخصه . وله صور أخرى تتصل بآرائه وثقافته ومذهبه الكلامي

فى أربعة مجلدات ضخمة[1] ... فإذا أخذنا بقول ياقوت وقع الجزء من أجزاء الكتاب فى أربع عشرة كراسة وجزء من الكراسة ، وإذا أخذنا بالقول الثانى وقع الجزء فى خمس وعشرين كراسة ، نستطيع أن نقدرها تقديراً كميًا ، أو حجميًا ، بهذا الجزء الكبير الذى وصلنا من أجزاء الكتاب ، والذى أنفق فى ترتيبه وتصحيحه وطبعه ، أستاذنا الشيخ زناتى ، ما أنفق من كريم الجهد والعمر والمال ، ما أنفق ... وعوّضه الله خيراً ! ...

ويقول أبو العلاء : إن المراد بالغايات القوافى ، لأن القافية غاية البيت ، أى منتهاه ، وهو كتاب موضوع على حروف المعجم ، ما خلا الألف ، لأن فواصله مبنية على أن يكون ما قبل الحرف المعتمد فيها ألفاً ، ومن المحال أن يجمع بين ألفين ... إلى آخر ما شرح به القيود التى تقيد بها فى تأليف كتابه ، والتى لم يُبين لنا فيها سبب تأليف الكتاب الحقيقى ، وإن كان الدكتور طه قد حدثنا عن ذلك حديثاً قيماً فى كتابه : مع أبى العلاء فى سجنه ، فذكر أن الفصول والغايات هو لزوم ما لا يلزم نثراً ، مقيداً مثل اللزوميات ، أو أشد منه ، بقيود أشبه بعبث الأطفال الكبار ! ونشهد الله على أنها لم تكن عبث أطفال كبار ، ولكنها كانت حلقة فى سلسلة الحيل التى كان أبو العلاء يتقى بها شرور زمانه وغطرسات حكامه ... وندع ذلك الآن

٢ — وألف أبو العلاء كتاباً يوضح فيه غريب الفصول والغايات ، وما فيه من اللغز ، سماه : الشاذن أو الشّادر ، أو السّادن ، وهو جزء واحد فى عشرين كراسة

٣ — وكتاب إقليد الغايات ، أى مفتاح الألغاز ، فى عشر كراسات

٤ — ثم كتاب الأيك والغصون ، وهو كتاب الهمزة والرّدف : يُبنى على إحدى عشرة حالة ، الهمزة فى حال إفرادها وإضافتها ، ومثال ذلك السماء بالرفع والنصب والخفض والتنوين (بدون أل طبعاً) ، وسماؤه مرفوع مضاف ، ثم منصوب مضاف ثم مخفوض مضاف ، ثم سماؤها وسماءها وسمائها ، ثم همزة بعدها هاء ساكنة ، مثل عباءه ... فإذا ضربت ذلك فى حروف المعجم الثمانية والعشرين خرج من ذلك ثلاثمائة وثمانية فصول ... الخ . ويقع الكتاب فى اثنين وتسعين جزءاً تستغرق ألفاً ومائتى كراسة ! وألف فى تفسير غريبه كتاباً من جزء واحد

٥ — ثم كتاب تضمين الآى : بعضه على حروف المعجم وقبل كل منها فى الكلمة الأخيرة فى كل فاصلة ألف . مثل نساء — كتاب — بنات — غيابات — أجاج : وبعضه آخر فواصله على فاعلين أو فاعلون ... وبعضه غير هذا وذاك . ويقع فى أربعمائة كراسة ... وهو من الكتب التى طلب إلى أبى العلاء تأليفها ... طلبه منه أحد الأمراء فألفه برسمه فى العظات والحث على تقوى الله !

٦ — ثم كتاب سيف الخطبة ... لخطب السنة المنبرية والخسوف والكسوف والاستسقاء وعقد النكاح ... وهو على حروف المعجم كذلك ... والظريف أن أبا العلاء أهمل الجيم والحاء ، وما يجرى مجراها : لأن الكلام المقول فى الجماعات ينبغى أن يكون سجسجاً سهلاً ومقداره أربعون كراسة

٧ — وكتاب تاج الحرة فى عظات النساء ، والتزم فى فواصله خطاب النساء على حروف المعجم نحو : تشائى وهابى — وعلى تفعلين كتشكرين ، أو الكاف ، نحو كلامك وصيامك . ويقع فى أربعمائة كراسة

٨ — وكتاب سجع الحمائم ، على لسان حمائم أربع ، فى العظات والحث على الزهد ، وقد طُلب إليه أحد الأمراء تأليفه فأملاه فى أربعة أجزاء فى ثلاثين كراسة

٩ — وديوان لزوم ما لا يلزم ، وقيوده معروفة ، جعله فى ثلاثة أجزاء ، فى أربعمائة وعشرين كراسة ، وعدد أبياته أحد عشر ألفاً — وقد خاض بعض خصوم أبى العلاء فى اللزوميات فرد عليه بكتاب زجر النابح ، ثم جعل له ذيلاً سماه بحر الزجر — ويقع زجر النابح فى أربعين كراسة — وشرح اللزوم فى جزء واحد — وكتاب آخر فى شرح غريب اللزوميات سماه راحة اللزوم فى مائة كراسة ، وأظنه فى شرح فلسفته ومثله كتاب الراحلة

١٠ — وكتاب جامع الأوزان ، وفيه أشعار تنتظم ألغازاً

(١) مر أبى العلاء فى سجنه ص ٢١١

استوعب فيه الأوزان الخمسة عشر التي ذكرها الخليل بجميع ضروبها (وهذه عبارة ياقوت) مع ذكر قوافي كل ضرب ... والمعرى هنـا مؤرخ للعروض جاهليّـه وإسلاميّـه وعباسيّـه . والـكتاب في ثلاثة أجزاء في ستين كراسة تضم نحو ستة آلاف بيت بعضها لأبي العلاء وبعضها لشعراء غيره

١١ — وكتاب السجع السلطاني في أربعة أجزاء ، ألفه لبعض الوزراء الذين أقبلت عليهم الدنيا من غير طريق الأدب (وفيه مخاطبات للجنود والوزراء وغيرهم من الولاة)

١٢ — وكتاب سجع الفقيه في ثلاثين كراسة ، وكتاب سجع المضطرين ألفه لبعض ذوي الأسفار (يستعين به على أمور دنياه)

١٣ — وشرح المعرى غريب شعر أبي تمام (ذكرى حبيب) في أربعة أجزاء في ستين كراسة ، وقد طلبه منه أحد أصدقائه فعمله ؛ وراجع ديوان البحتري لأحد الرؤساء ليثبت ما جرى فيه من الغلط ، فسمى النسخة الجديدة التي صنفها (عبث الوليد) في عشرين كراسة ؛ وكلفه عظيم من الرؤساء يلقب بمصطنع الدولة ويدعى كليب بن على بمراجعة أحد دواوين الحماسة (واسمه الحماسة الرياشية) فألف في ذلك كتابه الرياش المصطفى فسر فيه ما لم يفسره أبو رياش . وهو أربعون كراسة

١٤ — وكتاب الصاهل والشاحج ، على لسان فرس وبغل ألفه لأبي شـجاع فاتك ، الملقب بعزيز الدولة ، والي حلب من قبل المصريين

١٥ — وكتاب شرف السيف ، وقد أورد ياقوت عن هذا الـكتاب خبراً هاماً جداً ، نقله عمن كان يستملي أبا العلاء من الطلاب ، وذلك حيث يقول إنه عمله لرجل من دمشق يدعى تَشْتكين الدزبري ، كان يوجّـه إلى أبي العلاء السلام ويُحْفي المسئلة عنه ؛ فأراد جزاءه على ما فعل ... فلنذكر ذلك إلى حين

١٦ — وكتاب اللامع العزيزي في شرح شـعر المتنبي ، صنّـفه للأمير عزيز الدولة — وهو كتاب ممجز أحد كما ذكره الصفدي ، في مائة وعشرين كراسة

١٧ — ثم عشرات من الـكتب في النحو والعروض والألغاز وغرائب اللغة ، ثم كتابه ديوان الرسائل ، الطوال ودون الطوال ، والقصار ، وتتجلى في ذلك الـكتاب عبقرية أبي العلاء وخياله الخصب وأصالته الأدبية ، وحسبك أن تعلم أن رسالة الغفران الخالدة ورسالة الملائكة هما وشل مما في هـذه الرسائل . ذلك ولم نشر إلى ديوانه سقط الزند لشهرته ، ولا إلى عشرات من كتبه الأخرى

فمن هـذا الإحصاء الوجيز الذي وضعناه عن مؤلفات أبي العلاء عامدين ندرك أشياء شتى ، ونستنتج أشياء شتى ... ندرك تعدد ثقافات أبي العلاء واتساع آفاقها ، وندرك أنه كان يصنّـف كثيراً منها — يزيد على الثلاثين كتاباً ضخما ، بطلب خاص من الوزراء والأمراء وأعيان البلاد العربيـة ... وندرك أن أبا العلاء كان رجلا موسوعياً في آداب اللغة العربية ، ثقة في فقه هذه اللغة ، فوق كونه فيلسوفاً ملماً بمعتقدات الأديان المختلفة ، بل بمعتقدات فرق الأديان المختلفة ، كما ندرك أنه كان يغلو غلواً شديداً في تعقيد تلك الـكتب ويختط لها خططاً عجيبة مضحكة من الإسراف الشكلي والإلتواء الشديد

أما الذي نستنتجه من كتب أبي العلاء ومن تاريخ حياته . فهو أنه كان يُـكوّن مع طلبته ، شيئاً أشبه بهذا القسم من الجامعة المصرية الذي نسميه كلية الآداب ... أو شيئاً أعظم من هذا القسم من الجامعة الأزهرية الذي نسميه كلية اللغة العربية

وليضحك من شاء من القراء على استنتاجنا ذاك الذي نذهب إليه جادين ، ونزيد عليه أن أبا العلاء لم يكن يعلم طلبته أولئك . طلبة كلية أبي العلاء ... بالمجان ... وأنه لم يكن يؤلف كتبه الـكثيرة الضخمة هـذه لمن يطلبها ولمن لم يطلبها بالمجان أيضاً . لقد جمعت عدد الـكراسات التي أملاها أبو العلاء ، من المصادر القليلة التي تحت يدي فوجدتها تربي على عشرة آلاف كراسة ، وقد أشرت إلى أن كتاب الفصول والغايات الذي بأيدينا كان يقع في عشرين كراسة أو أكثر أو أقل من ذلك بخمس كراسات — وفي هذا الحجم كانت تقع مئات من كتب أبي العلاء .. ولو قدرنا أن ثمن الـكراسة الواحدة كان عشرة قروش مصرية ، وهو تقدير متواضع جداً لزمن أبي العلاء ، لعرفنا أن أبا العلاء قد اشـترى ورقاً ، أوكاغدا ، أو رَقّـا ، أو ما شئت فسم مادة كراساته ، بمائة ألف قرش . هذا غير المداد والأقلام ... وإذا ذكرنا أن أبا العلاء كان رجلاً فقيراً ، بل رجلاً مُعدماً ، لا يزيد دخله عن ثلاثين ديناراً من ذلك الوقت المعروف ، كان يقتسمها وخادمه ، وإذا عرفنا كذلك أن أبا العلاء كان مع هـذا الفقر رجلا كريماً لا يبخل على تلاميذه بحسن الوفادة ، وإكرام المثوى والمونة المادية ، وأنهم